هوامش

رغم أنه رابع أكبر قصر عثماني في مدينة إسطنبول التركية، حظي «يلدز» بشهرة خارجية بسبب مقتنياته وهندسته، وتحوّل إلى مضرب مثل في المشرق العربي عن الثراء والترف

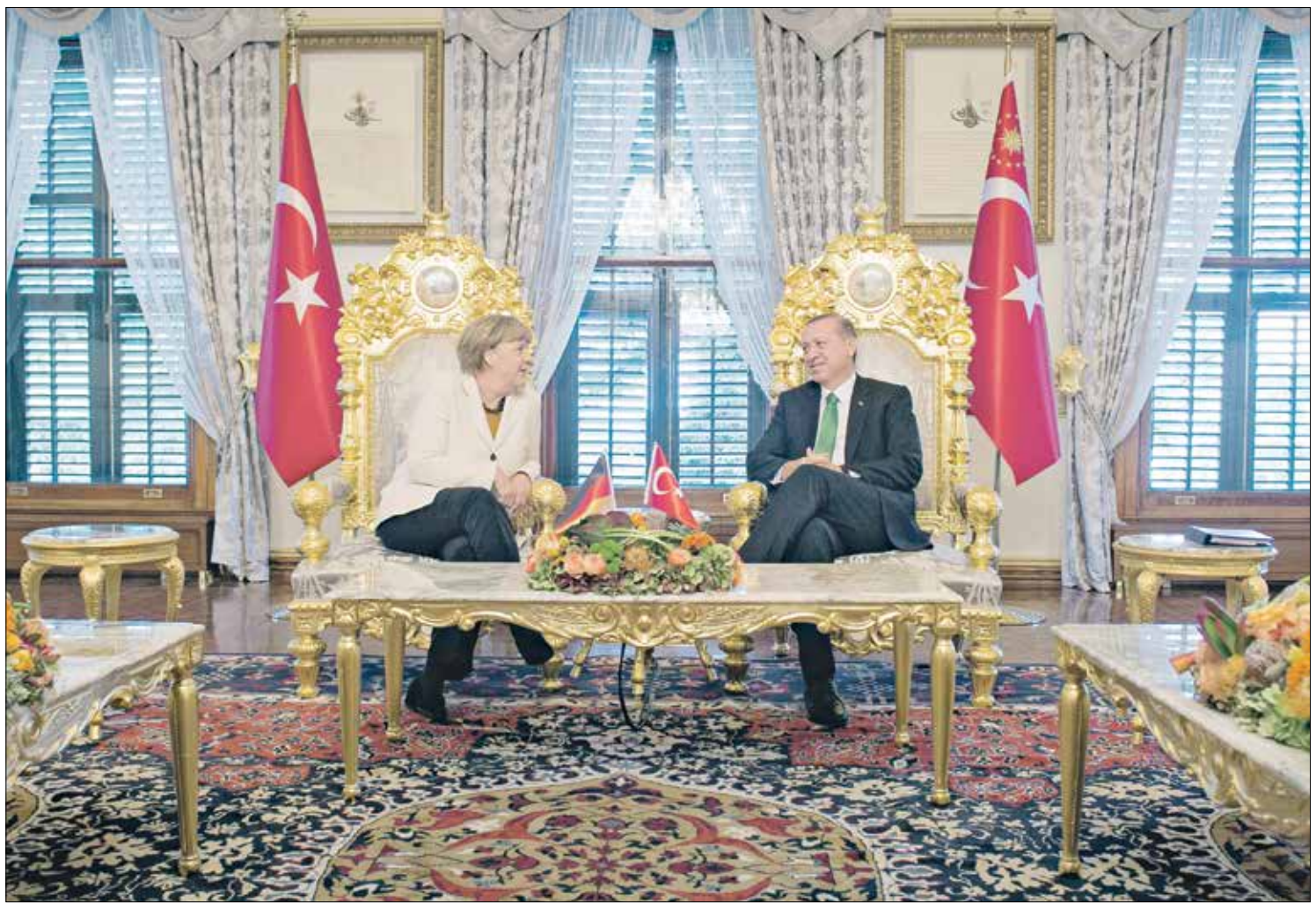

لقاء اردوغان وميركل في قصر «يلدز» عام 2015 (غيدو برغمان/Getty)

قصر «يلدز»

«نجمة» خلود الترف العثماني

إسطنبول ـ **عدنان عبد الرزاق**

يذكر الأتراك جيداً الحوادث التي شهدها قصر «يلدز» من سرقات وحرق، وتحويله إلى كازينو للقمار، بعدما استثمره القطاع الخاص عام 1926، بعد تأسيس مصطفى كمال أتاتورك الجمهورية، وكذلك وضعه مجدداً على سكة التاريخ العريق بعد تولي الرئيس التركي الحالي رجب طيب أردوغان منصب رئيس الوزراء عام 2003، حين أعاد ترميمه واستخدمه لدى استقباله ضيوفاً أجانب كباراً، بينهم المستشارة الألمانية السابقة أنجيلا ميركل والملك الأردني عبد الله الثاني وأمير قطر تميم بن حمد. ويذكر متابعون للشأن التركي ردود الفعل التي أطلقها معارضون لدى تدشين الرئيس التركي أردوغان جامع «يلدز» عام 2017، حين احتجوا عبر مسيرات في الشوارع ضد ما وصفوه بأنه «محاولة منه لاسترجاع تاريخ السلطنة العثمانية»، فرد مستشار الرئاسة مصطفى وارنك قائلاً: «جرى تحويل قصر يلدز إلى كازينو سابقاً، ثم بات يستقبل زعماء العالم حالياً. لماذا لا يعجب هذا الأمر البعض؟».

فعلياً، يسرق قصر «تشانكايا» في أنقرة، المعروف باسم «القصر الأبيض»، الذي دشنه أردوغان عام 2014 بكلفة 600 مليون دولار، وقصر «دولما بهشة» بإسطنبول، الضوء من «يلدز» (النجمة) الذي أهداه السلطان سليم الثالث يوماً لوالدته السلطانة مهري شه، رغم أنه كان استعاد بعض أمجاده عبر استقبال زعماء دول وعقدِ أردوغان لقاءات فيه، كما حدث حين استقبل صحافيين قبل خمسة أعوام. ولولا أنه يستضيف حالياً معرضاً لصور تاريخ الأردن، وكشف بعض كنوزه العام الماضي، لاستمر تغييب التحفة المعمارية لقصر «يلدز» التي بناها العثمانيون نهاية القرن التاسع عشر، واتخذه السلطان عبد الحميد الثاني بدلاً من قصر «دولما بهشة» مقراً لحكم السلطنة. وقد أعاد الاحتفال بمئوية تأسيس الأردن قصر «يلدز» ومكتبته إلى الواجهة، إذ عرضت فيه 50 صورة عن الأردن تضمنتها مكتبة القصر التي تحتوي نحو 150 مليون وثيقة عن المنطقة العربية وتاريخها، و400 ألف مخطوطة مكتوبة بلغات مختلفة، موضوعة على رفوف بطول 5 آلاف متر.

في الذاكرة

ويشرح الدليل السياحي في متحف تشورا بمنطقة الفاتح في إسطنبول سردار دونميز، لـ«العربي الجديد»، أن قصر «يلدز» يتمتع بخصوصية كبيرة وأهمية تفوق باقي القصور، ليس فقط لاعتباره المقر الأخير لحكم العثمانيين بعد قصر «توب كابي» وقصر «دولما بهشة»، بل لأنه واجه تحولات ومحاولات تشويه بعد زوال الدولة العثمانية، ما زالت ذكراها محفوظة في ذهن الأتراك.

غاب قصر «يلدز» عن الذكر بالكامل بعدما غادره آخر السلاطين العثمانيين وحيد الدين عام 1922، وألغى أتاتورك، مؤسس تركيا الحديثة، الخلافة الإسلامية وأنشأ الدولة العلمانية. وجرى تقسيم القصر بحسب وظائف من يستخدمه، فخصص جزء منه للدوائر العسكرية، وآخر لمؤسسات وشركات افتتحت إحداها نادياً للقمار فيه عام 1926. لكن القصر احتفظ بتحفه الفنية، وبينها لوحات رسمها السلطان عبد الحميد، وأرشيف ووثائق وقعها السلاطين محمد الفاتح وعثمان الثاني ومحمود الأول، وصور للتاريخ الغني للمنطقة التي حكمتها الدولة العثمانية.

ويرى دونميز أن استعادة السلطات قصر «يلدز» كان مهمة معنوية بالدرجة الأولى، فهو يستضيف اليوم مراسم رئاسية قليلة ويعتبر أقرب إلى متحف وأيقونة عثمانية، بعدما وفرت مقتنياته، خصوصاً الكراسي، عودة إلى طقوس السلطنة ما قبل عشرينيات القرن الماضي.

محطات

يعود تاريخ بناء القصر، الواقع بين مناطق بشيكتاش وأورتا كوي وبالمومجو، إلى عام 1790. ويُقال إن السلطان سليم الثالث قدمه هدية إلى والدته السلطانة مهري شه، قبل أن يهتم عهد السلطان عبد الحميد الثاني بتوسيعه للمرة الأولى عام 1890، حين اتخذه مقراً لحكمه، ثم أنجز المعماري الإيطالي دارانجو المرحلة الثانية من عملية توسيعه لاستقبال القيصر، إمبراطور ألمانيا، وليام الثاني. وشيّد قصر «يلدز» على ثلاث مراحل ضمن حديقة مترامية الأطراف. وشهدت المرحلة الأولى بناء «كشك يلدز»، أي المبنى المسيّج بجدران عالية، والثانية توسيع الكشك إلى قصر، فيما شملت الثالثة بناء منشآت وصالات وأجنحة وغرف خاصة بأفراد الطبقة الحاكمة، وهم السلطان والأمراء والأميرات، وأخرى للخدم وعدد من الحدائق إضافة إلى إسطبلات خيل.

ورغم أن العثمانيين اتخذوا قصر «يلدز» لعقود مقراً أساسياً للحكومة والسلطان بدلاً من قصر دولما بهشة، خبا نجمه في استقبال الضيوف ليحتفظ فقط بقيمته التاريخية. وهو يقسم إلى جزئين يعكسان التقاليد العثمانية، أولهما للرجال والثاني للنساء، في حين تمتد شهرة صالة الاحتفالات، التي تتجاوز مساحتها 400 متر مربع، حتى اليوم. وقد أحيا ترميم موجودات في القصر، بينها أثاث فخم وأثري وصالة الطعام المعروفة باسم «الصالة الصدفية»، مرحلة تاريخية للدولة العثمانية، يلاحظها السياح الذين يقصدون أجزاء مفتوحة اليوم. كما أعاد افتتاح جامع «يلدز» قبل سنوات تواصل الأتراك مع ماضيهم، فهو المكان الذي سجد فيه السلطان عبد الحميد الثاني، وسميّ «يلدز الحميدية» نسبة لذلك، علماً أنه كان أمر ببنائه عام 1880، ليحظى بفخامة وجمال من خلال أبوابه المزخرفة بالذهب، كما لو أنه قصر ضمن قصر.

الجامع

ويأخذ جامع «يلدز» شكل المستطيل، ويحتوي على مئذنة واحدة مزينة بزخرفة عثمانية تقليدية. والملفت فيه قبته المثبتة على أربعة أعمدة حديدية سميكة، والمزينة بنجوم منقوشة على أرضية زرقاء. وهو يحتوي على 16 نافذة تضيف لمسة جمال عليه إلى جانب السلالم التي تلفه من جهتين، كما يضم غرفة للسفراء وأخرى لطالبي العلم وللعبادة، وربما للاسترخاء. وعموماً، تعكس قصور السلاطين العثمانيين ومظاهر الترف فيها أنماط الحكم وطبيعة الحكام، وربما شهرة ودلالات تتعدى أيضاً الغنى والسطوة إلى التطور الذي ساد حينها. ففي قصر «توب كابي»، مركز حكم الدولة العثمانية خلال 4 قرون، أسرار «الباب العالي» وكنوز السلطنة الأغلى، وفي قصر «دولما بهشه» ملامح الإعجاز والفخامة. ويتضمن قصر إلهامور وقصر كوتشوك سو وقصر الخديوي ميزات أخرى، لكن قصر «يلدز» لا يزال يحتكر الشهرة الأكبر خارجياً.

باختصار

مؤسس تركيا الحديثة مصطفى كمال أتاتورك سمح بتحويل قصر «يلدز» إلى كازينو للقمار، ثم وضعه رجب طيب أردوغان مجدداً على سكة التاريخ

■■■

يستضيف قصر «يلدز» اليوم مراسم رئاسية قليلة، ويعتبر أقرب إلى متحف وأيقونة عثمانية

■■■

تعكس مظاهر الترف في قصور السلاطين العثمانيين أنماط حكمهم وطبيعتهم، وقصر «يلدز» يحتكر الشهرة الأكبر خارجياً

وأخيراً

حتى لا ينقطع المعروف

سعدية مفرح

كنت أنظر دائماً إلى الحكمة الشعبية «اتقّ شرّ من أحسنت إليه» بعين الشك والريبة، بل إنّها كانت مدخلي إلى التشكيك بمقولات دارجة وأحكام شائعة كثيرة اعتدنا أن نضعها في محفظة الحكم الشعبية، باعتبارها خلاصة التجارب الإنسانية المقطرة على مر الأزمان. لكنّ الحكم الشعبية، ومثلها الأمثال، تبدو متناقضةً، في أحيانٍ كثيرة، وفقاً لتناقض التجارب الإنسانية بالتأكيد، على أنّ المشتركات كثيرة والمتشابهات بينها أكثر، وهو ما جعلها تصمد في حكم التجارب والأقوال عموماً.

لكن، كيف يمكن أن نأخذ تلك المقولة التي تحضّ على عدم الإحسان بهذا التوكيد البشري الكبير الذي ضمن لها الشهرة والذيوع خاتمة لكلّ قصص الخذلان والغدر بين الناس، خصوصاً من تربطهم علاقة مميزة بعضهم ببعض؟

جرّب أن تستشهد بتلك المقولة بين مجموعة من معارفك أو زملائك في العمل أو أفراد أسرتك أو أصدقائك، وستندلق عليك حكايات كثيرة مؤلمة سيحكيها أصحابها بحماس ووجع وأحياناً بدموع.

لكلّ منا قصته الخاصة أو قصصه الخاصة الكثيرة مع هذه المقولة، أي مع أناس أحسنّا إليهم ذات يوم، فكان جزاء الإحسان هو الشرّ! نعم، صحيح يحدث هذا دائماً، لكنّنا نتجاهل أحياناً الأسباب، ونحتكم فقط إلى معطياتنا الخاصة من دون سماع معطيات الطرف الآخر وأسبابه.

صحيحٌ أنّ من الطبيعي انحياز المرء لأفكاره الخاصة في أيّ نقاش حرّ بينه وبين الآخر، لكنّ الصحيح أيضاً أن نترك فسحةً من الفراغ في مساحة الفهم، لكي نستمع بهدوء وموضوعية لما يرشح لنا من النقاش عموماً.

عندما حاولتُ أن أفعل ذلك في أكثر من تجربة خذلان مرّت بي، وجدت الكثير من العزاء النفسي في تلك المساحة التي أخليتها. وجدت أنّ الطرف الآخر الذي يجازيك بما تعتقده الشرّ بعد أن أحسنت إليه لا يفعل ذلك غالباً جزاء لك، بل يفعله إما في حالة مستقلة تماماً عن حالة الإحسان التي تلقاها أو أنه فعلها وهو لا يقصد أنّه يسيء إليك. نعم... هذا ما يحدث، مع الاعتراف بحالات استثنائية كثيرة شاذّة يبادر إليها المسيء قاصداً!

قبل أيام، شاهدتُ مقطعاً مصوّراً في أحد الشوارع الغربية لرجل يرى شخصا آخر نائماً على رصيف الشارع في حالة يُرثى لها من البرد والعوز كما يبدو عليه، فرقّ قلب الرجل ونزع معطفه ليغطيه، حماية له من البرد على الأقل، لكنّ ذلك الرجل الذي وصفه الخبر المنشور مع المقطع بالمتشرّد، هبّ واقفاً فجأة ليعتدي على الرجل الرحوم ويضربه، ويسرق محفظته ويلوذ بالفرار. معظم التعليقات التي كتبها الناس على ذلك المقطع استعارت مقولة «اتّقِ شرّ من أحسنت إليه» وهو ما دفعني إلى التفكر في ما وراء تلك المقولة الذائعة كحكمة شعبية خالدة.

> علينا ألّا نربط بين أيّ خير قدّمناه للآخرين ونتائج سلبية حصلنا عليها منهم، على الأقل حتى لا ينقطع المعروف بين الناس

لم يقصد «المتشرّد» مجازاة الرجل الذي عطف عليه بالشرّ، على الرغم من أنّ هذا ما حدث فعلاً أمام أعيننا، لكنّنا لا نعرف دوافعه الحقيقية، فمن غير المنطقي ولا المعقول أن يردّ المرء على من بادر لمساعدته بهذا الشكل العنيف والمؤذي والصادم فورياً! ومع أنّ لا شيء يمكن أن يبرّر له ما فعله، فإنّ إشاعة مثل هذه «الرؤية» السلبية لأفعال الخير العفوية مرفقة بتلك النصيحة التي تحضّ على اتقاء شرّ من أحسنّا إليهم، قد تشجّع على هجر الخير تجاه الآخرين، وتجنب مساعدة من يحتاج المساعدة، فالأصل في العطاء أن نبادر إليه بلا نيّاتٍ مسبقة ولا انتظار لرده. وبالتالي، علينا ألّا نربط بين أيّ خير قدّمناه للآخرين ونتائج سلبية حصلنا عليها منهم، على الأقل حتى لا ينقطع المعروف بين الناس.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**